هاجس الاغتراب بين الحلم واليقظة

دراسة في قصيدة "صحوة الورق" لإبراهيم محمد إبراهيم(1)

أحمد الزعبي

الحلم ملاذ الشعراء حين تضيق بهم دوائر الحياة وفوضاها وكوابيسها وانهياراتها التي تحاصرهم من كل اتجاه. فحين تسلب حرية الشاعر وتزرع تحت أقدامه الأشواك وتتعالى في طرقه الأسوار، ينسحب من الطرقات والأمكنة والناس ويعانق أحلامه.. يداعبها وتداعبه ويُفلت من أسر الواقع الملوث الموبوء ويفرغ أحلامه ورقاً.. كلمات.. شعراً يصحو في وقت ما، ويوقظ كل دفين في صدر الشاعر في مكان ما.. في لحظة ما.. يقول:

حُلمٌ تجلّى كالنَّدى
في صَحوة ِالوَرق ِ
أوّاهُ من نوم ِالعيون ِعلى القَذى
أواهُ يا أرقى

الحلم ملاذ الشاعر، إنه نتيجة لأرق لا ينتهي وقذارةٍ تعمي العيون، تهب رياحها من كل جانب فلا تترك للشاعر مهرباً سوى الأحلام، يبدد فيها الأرق والقهر والاكتئاب أو تدفع به إلى الغياب أو الارتحال أو الاغتراب، تائهاً في أصقاع الأمكنة والطرقات لعل حلماً جميلاً ينتظره في بقعة ما.. عند غدير ما.. يخفف عنه آلام جراحه الدامية التي لا يبخل عليه بها عالمه الموبوء المتصادم المتآكل، يقول:

لما تعثَّرتِ الخُطى بتفرُّقِ الطُّرُق ِ
تَعِبَ التِطامُ الموج ِ
من بأسي, ومن غرقي
بكتِ العيونُ معي،
على ميلادِها فرحاً فأمطرتِ السماءُ
تبشّر الآتينَ من أقصى بلادِ القَهْرِ بالعَبراتِ

الرحيل ملاذ آخر للشاعر.. هروب آخر.. فحين يكون كل ما حولك ملوثاً خانقاً متفسخاً، فإنك لابد أن تبحث عن مكان أقل اختناقاً، عن عالم أقل تفسخاً... عن هواء نقي قبل أن تسقط قهراً أو حزناً أو اختناقاً.

إذن، فليرحل الشاعر بحثاً عن (فرح) أو (مطر) يريح أعصابه التي تهرأت من تغيّر الوجوه وزيف العلاقات وقذارة الصراعات واندثار القيم الجميلة، فليرحل إذن، فقد تعددت الطرق وتفرّعت وتفرّقت.. وتعثرت معها خطى الشاعر.. فليبحر إذن في متاهات المحيط، يحمل روحه على كفه.. يهدده الموت والغرق والموج... المهم أن يبتعد عن الوباء والأسوار والقيود والاكتئاب... على أن يحط رحله في بقعة بعيدة.. في روضة نائية.. فيها مطر.. وشجر وطيور... لا تلوّث ولا تلويث في هواها ومائها... فيشعر بالراحة والبشرى والبعد عن (بلاد القهر) وأجواء الحزن.

فَأنخْتُ راحلي،
وكلَّ مآربي.. في رْوضةٍ خضراءَ
تحكي للحيارى قصةَ الآتينَ
من ثَغْرِ الصباح ِالآتي
وفَرشْتُ للأحلام ِفيها بُردةً
بين الزهورِ.

حطّ الشاعر رحله في (روضة خضراء)، وفرش لأحلامه ثوباً في حديقة غناء، وراح يفرض أحلامه الجميلة على ذهنه وعالمه وأعماقه، لتخفف عنه القهر والأسى الذي يمتزج بذاكرته ومخيلته، واستبدل الماضي الكئيب بحاضر حالم بهيج لا يتمنى الإفاقة منه أو الرحيل عنه، وراح يحتفل بهذه اللحظات الجميلة الهادئة، كأنه يسرقها من العمر المبعثر الضائع، يقول، وقد حوّل الأحلام إلى حقيقة (في الحلم أيضا):

غزلتُها بخواطِري
ونسجتُها بحياتي
حتى رأيتُ الكونَ هذا صَفْحَتي
والغيمَ شِعري
والطيورَ رُواتي
يا ظُلمةَ الأمس ِالكئيبِ تبدَّدِي
قد آن أَنْ أَحْيا بُزوغَ نَهاري

.....وأرى بلادي،
حرةً بين الطيورِ كطفلةٍ سمراءَ،

ويستمريء الشاعر حلمه الجميل، وتتبدل صور القهر والألم والاختناق إلى صور الربيع والأزهار والجمال. هذا هو (الكون).. العالم.. الوطن الذي يريده... تتبدد فيه (كآبة) الماضي.. ويحتفل فيه (ببزوغ النهار) وشروق الشمس.. فتزقزق العصافير شعراً.. وحباً.. وجمالاً.. وتمطر الغيوم شعراً.. ودفئاً... وحياة... عندها يصبح المكان وطناً حبيباً جميلاً... ويغدو الزمان ربيعاً مزهراً صافياً... وهنا تعود البلاد طيراً مغرداً بين الطيور.. وطفلة سمراء ترتع في الحقول والمروج والغدران.

ويرتاح الشاعر لعالم الأحلام والأمنيات، ويمعن في وصف جمالياته وبراءته ونقائه... وكأنه البديل عن عالم الواقع المليء بالكوابيس والظلام... إنه الحلم الأمنية التي يتشوق لرؤيتها وقد غدت حقيقة.. إنها الأمنية الجميلة التي يريد (بلاده) أن تكون عليها.. جميلة دافئة.. نقية.. مزهرة.. صافية.. حانية... عندها يعاود الشاعر احتضانها وتقبيلها والتفاني فيها يقول:

..... وتعودُ نحوي
والحنينُ يحثُّها
فأضمها ولَهاً كما عوّدتُها
وتذوبُ في صدري.. فَتَخْمَدُ ناري
فلقد رحلتُ
وفي فؤادي لهفةٌ للعودِ

يتشبّث الشاعر إبراهيم محمد إبراهيم بحلمه وبوطنه إلى أقصى حد، إنه لا يريد الرحيل ولا الاغتراب ولا التشرّد في أصقاع الدنيا ولديه وطن جميل يبادله الحب واللهفة والدفء والانتماء، لكنه يريده الوطن الحلم... الصورة التي رسمها في خياله.. بكل بهائها وجمالها وإبداعها وطموحها وإزهارها وشواطئها.. الصورة البديعة التي (تخمد ناره) وآلامه القديمة.. الصورة التي يضمّها إلى صدره ولا ينتزعها منه أحد...التي يمتزج بها وتمتزج به... صورة الإنسان والوطن في أبهى حالات الالتحام والانتماء والتفاني.

لكن الرحلة / الحلم / المنفى في البلاد البعيدة لن تطول إلى مالا نهاية... فبعد كل رحيل عودة.. وبعد كل سفر رجوع.. وبعد كل حلم صحو... فقد رحل الشاعر بعيداً... وحط

رحله هناك.. وكتب أشعاره هناك.. لكنه اكتشف أنه قد أخذ وطنه معه، أو أن الوطن قد سكنه وصاحبه في حلّه وترحاله، وأن أحبته كانوا في أعماقه، وكأن هذا الرحيل لم يحدث أبداً، يقول:

لكني رحلتُ
وما عجبتُ لقسوتي وعنادي
إني رحلتُ إلى بلادٍ
تستريحُ على رُباها خَيمتي, ودفاتِري ومِدادي
فوجدتُ أَنَّ أَحِبّتي رَحَلُوا معي
ووجدتُ في تلكَ البلادِ
بِلادي.

وسواء كانت رحلة الشاعر متخيلة أو حقيقية، وسواء كانت الرحلة حلماً يحقق رغبة كامنة في أعماق الشاعر، كما يرى علماء النفس، أو تجربةً فعليةً في بلاد الغربة، فإن الوطن يسافر مع صاحبه إذا كان الصاحب عاشقاً منتمياً محباً فعلاً لوطنه. وشاعرنا عاشق لوطنه.. إن رحل رحل معه.. وإن توجع توجع معه.. فهو لا يستطيع عنه فراقاً... لكنه يبثّه أشواقه وأحلامه وأمنياته أن يكون الأجمل والأرق والأنقى والأقوى، لا شائبة تشوبه، ولا ظلم يكدر صفوه ولا غراب ينعق في سمائه ولا قذى يملأ عيون أبنائه... إنه وطن الربيع.. والطيور.. والشموس.. والبحار... والفراش.. والحنين والوئام وكل القيم الجميلة التي يحرص الشاعر على زرعها وسقيها ورعايتها والحفاظ عليها، سواء كانت حلماً يتمنى الشاعر تحققه أو واقعاً يتمنى استبداله.

وأخيراً فإن تقنية الحلم التي لجأ إليها الشاعر إبراهيم محمد إبراهيم في قصيدة (صحوة الورق) تعكس، من وجهة نظر علماء النفس، أحد أمرين، الأول: أن الشاعر يحاول تحقيق رغبة قوية كامنة في أعماقه يصعب تحقيقها في الواقع فيلجأ إلى الحلم لتحقيقها، وفي القصيدة فإن الحلم وظف فنياً ليبوح الشاعر برغباته وأمنياته وأحلامه في أن يكون وطنه الأجمل والأنقى والأعدل والأرق. والثاني: أن الحلم انعكاس لواقع مؤثر مؤرق مقلق يتراءى للحالم بشكل فوضوي وغير منطقي، وفي هذه الحالة ينعكس هذا القلق على مجريات الأحلام. وهنا أيضاً وظف الشاعر هذا القلق والأرق في الحلم / القصيدة فنياً ليبوح أيضاً بأرقه وخوفه من اندثار القيم الجميلة في مجتمعه التي يرى

مؤشرات لذلك ومقدمات تنذر بتصدعات خطيرة في واقع المجتمع، فيرفع صوته شعراً (وورقاً) وصراخاً ليظل مشعل الحرية متقداً ومضيئاً، ولتظل القيم الجميلة والنبيلة هاجساً يسكن في أعماق الناس وأذهانهم وسلوكهم، فانهيار القيم يعني انهيار المجتمع حيث لا يُستثنى حينئذ أحد، فإذا كان الهواء نقياً سلم الناس جميعاً، وإذا كان الهواء ملوثاً سقم الناس جميعاً أيضاً، كما يرى الشاعر.

([1]) إبراهيم محمد إبراهيم: قصيدة (صحوة الورق)، موقع انترنت: www.adab.com

صدر حديثا

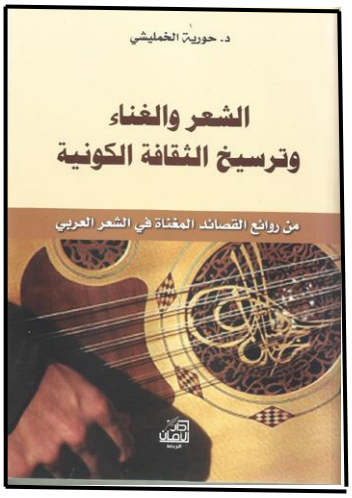

صدر حديثا